جامعة المولى إسماعيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس

مسلك: التاريخ والحضارة
السداسي الثالث

الكشوفات الجغرافية الكبرى

(الجزء الأول)

الأستاذ: عبد الفاضل الصافي

السنة الجامعية: 2008/2007

"الكشوفات الجغرافية الكبرى"

المقرر والبيبليوغرافيا

مدخل.

1) تطور الملاحة والظروف التي مهدت الطريق إلى أمريكا:

2) من هو صاحب السبق في الوصول إلى أمريكا:

أ ــ رحلة الإخوة المغرربين (المغربيين)

ب ــ هل وصل العرب إلى أمريكا قبل الأوروبيين؟

ت ــ الفيكينغ والبحر

3) كريستوف كولومبس ومن مشى على خطاه:

أ ــ الأسباب التي دفعت بالإيبيريين إلى ركوب البحر باتجاه الغرب

ب ــ رحلات كريستوف كولومبس

ت ــ الرحلات بعد كولومبس

4) النتائج العامة للكشوف الجغرافية.

البيبليوغرافيا

حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ضمن سلسلة عالم المعرفة، عدد 138، يونيو 1989.

جورج فاضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي قبل الإسلام وبعده، ترجمة يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1958.

الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، خمسة أجزاء، تحقيق تشيرولي وآخرين، روما/نابولي، 1970 ــ 1984.

عُبادة كُحيلة، عن العرب والبحر، ط. 2، الوادي الجديد للطباعة، القاهرة، 2001.

كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم، نشر لجنة التأليف، القاهرة 1963.

رايس (إ. إ.) (Rice E. E.)، البحر والتاريخ: تحديات الطبيعة واستجابات البشر، ترجمة عاطف أحمد، ضمن سلسلة عالم المعرفة، عدد 314، أبريل 2003.

BERNARD (C.) et GRUZINSKI (S.), Histoire du Monde Nouveau, t. 1, Fayard, Paris 1991.

BRAZÃO (E.), La Découverte de Terre-Neuve, Monréal, 1964.

CUMMINO (W. P.), La Découverte de l'Amérique du Nord, trad. Franç., Albin Michel, Paris, 1972.

DICKINSON (J. A.) et MAHN-LOT (M.), Les Européens découvrent l'Amérique: 1492-1992, Presses univ. de Lyon, 1991.

PARIAS (L. H.), Histoire universelle des exploitations, t.1 et 2, Paris, 1955.

POHL (F. J.), La Découverte de l'Amérique par les Vikings, trad. Française, Paris, 1954.

TODOROV (T.), La Conquête de l'Amérique: La question de l'autre, Seuil, Paris, 1991.

TRAPIEU (Blanche), Les Voyageurs Arabes au Moyen age, 8 éme éd. Gallimar, 1937.

المدخل:

يرتبط التواصل الجغرافي الكبير والأكثر أهمية بالمحيطين الهادئ والأطلسي، وبمرحلة تاريخية معينة هي نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين، وبشعوب أوروبية معينة هي البرتغاليين أولا ثم الإسبان والإنكليز والفرنسيين. هذا مع العلم، أننا لا يمكن أن نتجاهل إنجازات القدامى مثل الفينيقيين، وحديث هيرودوت عن كيف أنهم أبحروا ـــ قبل البرتغاليين ـــ حول القارة الإفريقية ولا نستطيع تجاهل كذلك مسارهم في السواحل الأطلسية لشبه الجزيرة الإيبيرية والمغرب وجنوب غرب إنكلترا. لا يسعنا كذلك في هذا الصدد، إلا أن ننوه بمجهودات الرحلات البرية.

إن الرحلات البحرية التي قام بها القدامى كالفينيقيين واليونانيين وغيرهم، وكذلك الرحلات البرية التي أسفرت عن تواصل بين قبائل وشعوب لم يكن يعرف بعضُها البعض، تمت بالتدريج وببطء ومن ثمة لم يكن لنتائجها وقعٌ مفاجئ وشديد على الإنسانية، وبالتالي فبالرغم من أهميتها لم تنل نفس الاهتمام الذي نالته الرحلات البحرية التي أدت إلى الوصول إلى أمريكا.

في الحقيقة إن تعبير الكشوف الجغرافية تعبير غير دقيق، فهو يفترض ـــ مسبقا ـــ أن ثمة مجهولا تم كشف الحجاب عنه. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: مجهول بالنسبة لمن؟. الواقع يدلنا على أن الغرب علم بوجود شيء كان مجهولا بالنسبة له، لكنه في نفس الوقت لم يكن مجهولا بالنسبة لبعض غيره. فباستثناء بعض الجزر القليلة المتناثرة في المحيطين الهادئ والأطلسي، كان كل البر

الذي وصل إليه الأوروبيون مأهولا ببني البشر، وبالتالي لم يكن مجهولا بالنسبة لكل الإنسانية، اللهم إذا تم اعتبار قبائل أمريكا مثلا قطعان ماشية. إن التعبير الأصح هو اكتشاف الطرق البحرية التي توصل إلى مناطق كانت مجهولة من طرف سكان قارات أوروبا وآسيا وإفريقيا، وكان سكان تلك المناطق بدورهم يجهلون وجود تلك القارات. فتعبير "اكتشاف أمركا" مثلا هو ضمنيا احتقار لسكانها الأصليين، واعتبارهم دون مستوى بقية البشرية. إذن لا يمكننا أن نتحدث عن عملية اكتشاف إلا عندما يتعلق الأمر بكشف النقاب عن شيء تجهله كل الإنسانية جمعاء بدون استثناء، كأن نقول مثلا تم اكتشاف مجموعة شمسية أخرى أو اكتشاف فيروس ما... . إن أهم إنجاز في الموضوع الذي نحن بصدده، هو الذي توصل إليه الأوروبيون أواخر القرن الخامس عشر، وذلك باكتشافهم الطريق البحري الذي يربط ما بين ما سمي فيما بعد بالعالمين القديم والجديد، ووضع مرشدات وخرائط ملاحية تثبت على الورق ذلك الطريق.

يحمل اليومَ هذا العالم الجديد اسم أمريكا، فما هو مصدر التسمية؟. من الناحية الإيتيمولوجية (علم الاشتقاق)، فأمريكا هي مشتقة من الاسم الشخصي ل "أميريغو فيسبوتشي Amerigo VESPUCCI" وهو أحد الملاحين (أصله من فلورنسا بإيطاليا) الذين وصلوا إلى أمريكا بعد كريستوف كولومبس، وقد قام بأربع رحلات إلى هذه الأخيرة. إن الذي أطلق هذه التسمية على هذه القارة هو الكوزموغرافي (الكوزموغرافية أو الكوسموغرافية Cosmographie هو ذلك العلم الذي يبحث في مظاهر الكون وتركيبه) مارتن فالدسيمولر Waldseemüller وكان ذلك سنة 1507، كما اقترح هذا الأخير في نفس السنة تسمية نفس القارة بـــ "القارة الرابعة في العالم" مدعيا أن أميريغو هو من وصل إليها الأول.

1) تطور الملاحة والظروف التي مهدت الطريق إلى أمريكا:

لقد تضافرت الجهود للوصول إلى أمريكا، فمن يدري من هو الصياد الأول المجهول الذي وصل إلى سواحل جزيرة الأرض الجديدة Terre-Neuve؟، ثم ألم يكن ملاحو كولومبس من غاليسيا والباسك؟ ألم يكن هو نفسه مدينا للبرتغاليين بمعرفته العلمية المتعلقة بالبحار؟ ألم يكن الملاح كابو Cabot الذي هو أصلا من البندقية يقوم برحلاته باسم الملكية الإنكليزية؟ وألم يكن الإيطالي فيرازانو Verrazzano يبحر لصالح ملك فرنسا؟. إن ظل اسم كولومبس لصيقا بحدث الوصول الأول إلى أمريكا فذلك راجع إلى كونه كان العبقري الأول الذي حث عن وعي تام على القيام بمغامرة توجت بنجاح باهر. ومهما قيل، فقد كان من بين الأوائل الذين كان لهم إحساس بأنه وصل إلى نصف الكرة الأرضية الذي كان مجهولا من طرف القدامى.

كما تراكمت التجارب والمعارف مما يسر الوصول إلى أمريكا. نجد من بين الأمور التي مهدت لنجاح الرحلات البحرية الكبرى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، ذلك التطور الذي عرفته وسائل

الملاحة. فمن بين ما يفسر الهيمنة البحرية للغرب الوسيط، هناك اختراع البوصلة وإدخال الدفوف بمؤخرة السفن واكتمال عملية تنظيم الصواري والأشرعة وإدخال تحسينات في تصميم السفن وحجمها. لقد اكتمل نظام ضبط الصواري والقلوع وأجهزة الحركة، وذلك بترافق استخدام الدفوف مع مجموعات الأشرعة. وكذلك أصبحت هناك أدوات ملاحية جديدة، بالإضافة إلى البوصلة والبورتولانيPortulan (مجموع وسائل توجيه وإرشاد السفن) والدليل الإرشادي الخاص بها. وهناك عامل آخر ــ لا يتصل بالمجال الاقتصادي مباشرة ــ يتمثل في ظهور الدول القومية الحديثة، وبظهور الأسلحة النارية واستخدامها على السفن ابتداء من القرن 14. فبطول منتصف القرن 15، كان الغرب قد دخل إلى ما يمكن تسميته بعصر البنادق والأشرعة.

وهنا تطرح مسألةٌ نفسَها، فجل التغييرات التي عرفتها وسائل الملاحة جاءت من أصول شرقية، ولاشك أن هذا الأخير قد امتلك معرفتها قبل الغرب، كما في حالة البارود، وإن اسم Boussole مشتق من البوصلة في اللغة العربية، بينما ورد أول ذكر لدفة توجيه الحركة مثلا في الغرب. التجديدات إذن جاءت من الغرب، بينما كان الشرق وبالضبط شرق البحر المتوسط شديد المحافظة.

نلاحظ عند اطلاعنا على صفحات التاريخ، أن العمانيين (حاليا عُمان والإمارات العربية المتحدة) كانوا خلال فترة متقدمة من العصر الوسيط يستعملون في البحار الشرقية سفنا مثلثة الأشرعة، وذلك خلاف ما كانت عليه الحالة في البحر المتوسط، حيث كانت السفن مربعة الأشرعة. كانت هذه الأشرعة المثلثة الممدودة على السفينة طولا، تعطي لها مزية المناورة في المجاري المائية الضيقة، كما إنها أقدر على الاقتراب من الرياح. وفي أواخر العصر الوسيط، أضاف الأوروبيون الشراع المثلث إلى سفنهم، وسموه بـــ Mezzana نسبة إلى الميزان باللغة العربية، أي إنه يوازن السفينة، ولولا ذلك ما تمت رحلاتهم البعيدة في أعماق المحيطات.

عرف العمانيون أيضا استخدام البوصلة التي كانوا يسمونها بـــ "بيت الإبرة"، ويشير إليها ابن ماجد في مؤلفه "الفوائد"[1]. إن نشْأة البوصلة غامضة، وينسبها البعض إلى الصينيين، ويقولون أنها انتقلت منهم إلى العرب والفرس، لكن الاتجاه الغالب اليوم هو أن الصينيين عرفوا الإبرة المغناطيسية، وأن العرب والفرس هم الذين استفادوا منها في الملاحة، وقد تم ذلك خلال القرن الحادي عشر الميلادي، وما لبث أن نقلها عنهم الأوروبيون في القرن الثالث عشر.

استعان العمانيون أيضا بالأسْطرلاب Astrolabe لقياس ارتفاع النجوم، والأسطرلاب وإن كان ابتكارا يونانيا، إلا أن العرب طوروه، ووصلت إلينا نماذج منه يعود بعضها إلى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وبعد ذلك نقله باقي الأوروبيين عنهم.

---

[1]) ابن ماجد، الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، نشره فيران سنة 1922 في باريس.

لم يقف العمانيون عند هذا الحد، فقد صنفوا مرشدات ملاحية وخرائط بحرية، لم تكن مألوفة عند الأوروبيين، وقد عاين المقدسي المتوفى حوالي 390 هـ/1000 م بعضها. فهو يقول:

> وأما أنا فسرت فيه [يقصد بحر الهند والزنج] نحو ألفي فرسخ، ودرت على الجزيرة كلها من القلزم [أي البحر الأحمر] إلى عبادان، [...]، وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشئوا من ربانيين وأشاتمة [أي ربابنة] ورياضيين ووكلاء وتجار، ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره، فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده، ورأيت معهم دفاتر في ذلك، يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها[...].[2]

دعيت هذه الدفاتر (المرشدات) التي تحدث عنها المقدسي راهنامجات أو راهمانجات ومفردها راهنامج أو راهمانج، وهي كلمة فارسية معربة معناها "كتاب الطريق"، فـ "راه" تعني الطريق و"نامه" تعني الكتاب، وقد مسَّها بعض التحوير عند نقلها إلى اللغة العربية.

عرف العمانيون هذه المرشدات في فترة مبكرة، ويشير ابن ماجد إلى واحدة منها، يعود تاريخها إلى سنة 580 هـ/ 1184 م، أي قبل أقدم المرشدات الملاحية الأوروبية التي دعيت بالبورتولانية Portolani ومفردها Portolano بأكثر من قرن. لكن أن تتوافر هذه المرشدات شيء، وأن تصل إلى البرتغاليين شيء آخر. لقد وصلت إلى البرتغاليين بعض المرشدات الملاحية العربية، وجدير بالذكر أن سفن البرتغاليين ونظائرهم الإسبان، كانت تضم بين ملاحيها نفرا من أبناء الأندلس المنكوبة والمغاربة المسلمين، فضلا عن اليهود وبخاصة يهود قشتالة Castilla الذين هاجروا إلى البرتغال عقب سقوط غرناطة سنة 897 هـ/1492 م، وكان هؤلاء يقومون بمهمة الترجمة.

لقد عاين فاسكو دي غاما سنتي 1497 و1498 سفنا عربية شمال موزمبيق بها بوصلات وآلات الرصد وخرائط بحرية، وعلى إحداها وجد مخطوطات عربية، بعث بها إلى مانويل ملك البرتغال. ولا أحد يستطيع إنكار أهمية المؤلفات البحرية، التي أنجزها بعض العرب مع منعطف القرن الخامس عشر وبعده بقليل، ونورد مثالا على ذلك ما خلفه كل من ابن ماجد وسليمان المهدي، وهما يمثلان تقليدا بحريا غاية في التقدم، وكان لديهم علم بالملاحة وإمكانات لا تقل بحال من الأحوال عن مثيلاتها لدى الغربيين.

إن أبرز من يمثل العبقرية العربية في البحار الشرقية، هو أسد البحر شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي. لا نعرف الكثير عن حياة هذا الملاح، وهو نفسه في مؤلفاته الكثيرة التي وصلنا بعضها، لا يأتي بما يفيد عن حياته هذه، ومن الثابت أنه ينتمي إلى أسرة لها باع كبير في الملاحة، ولأبيه مؤلف يعرف بـ"الأرجوزة الحجازية" ويقع في ألف ونيف بيت. ولد أحمد بن ماجد حوالي سنة 835 هـ/1432 م أو في سنة 838 هـ/1435 م، في جُلْفار أو جُرْفار (إمارة رأس الخيمة حاليا)، وأخذ

---

[2]) اسم المصدر هو: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، أبريل 1909، ص 23.

بمقود السفينة وهو بعد في السادسة عشرة من عمره، وظل منذ ذلك الحين يتنقل بين شواطئ ما يعرف اليوم بالمحيط الهندي. لقد خلف ابن ماجد قبل وفاته حوالي سنة 910 هـ/1504 م 32 أو 35 مؤلفا، ومن أهم ما وصلنا منها مؤلفه "الفوائد في أصول علم البحر والقواعد".

يعتبر هذا المؤلف معلمة بحرية واسعة، تتضمن إثنتى عشرة فائدة (أي فصلا). ويتحدث خلالها عن نشأة علم البحر ورواده الأوائل، وما يجب على الربان معرفته من أدوات الملاحة كالإبرة المغناطيسية ومعلومات فلكية تتصل بمواقع السفن وارتفاعها، ثم يتحدث عن البحار وأعماقها ودواماتها وتياراتها ومسالكها وشعاب المرجان فيها وموانئها والمسافات بينها والرياح التي تهب عليها، وكيفية توجيه السفن وقيادتها، ومواعيد الإقلاع المناسبة، والمد والجزر، ويهتم بالشعاب والسواحل والجزر الكبار كالقمر (مدغشقر) وشمطرة (سومطرة) وجاوة وزنجبار.

إن ما قيل عن تراكم التجارب والمعارف الخاصة بالملاحة البحرية عند العمانيين، يسري كذلك على الصينيين. فقد حدث، تحت حكم أسرة "مينغ" في أواخر الربع الأول من القرن الخامس عشر، تحول عظيم الشأن في الملاحة البحرية. فتحت قيادة "شينغ هو" قامت سبع رحلات خلال ثلاثين سنة، وكانت تتكون من حوالي 250 سفينة مشحونة باللؤلؤ يحرسها عدد آخر من السفن على متنها حوالي 250 ألف فرد. وقد زارت هذه السفن سواحل ماليزيا وسيلان والهند والخليج الفارسي/العربي وإفريقيا الشرقية. وكان تلك السفن ذات دفوف حركة، وكذلك استعمل الصينيون البوصلة. وحسب ما ورد عند ماركو بولو وابن بطوطة، كانت سفنهم كبيرة الحمولة جدا، وكانت تنقسم داخلها إلى غرف مستقلة، وكان لهم أيضا خرائط بحرية ومرشدات ملاحية ممتازة. وقد حدث كل ذلك قبل أن يظهر بعض تلك الابتكارات والتجديدات في الغرب.

لم يقف الإيبيريون موقف المتفرج من التطور الذي كانت تعرفه الملاحة البحرية في الشرق، فقد كانوا يعملون على جمع كل المعلومات التي يستطيعون الوصول إليها، وتكفي الإشارة هنا إلى الخدمات الجليلة التي قدمها هنري الملاح (1395 ــ 1460) للملاحة الإيبيرية. إن الأمير البرتغالي الذي عرف في التاريخ بـــ "هنري الملاح"، لم يكتسب ذلك اللقب من ممارسة الملاحة، فهو لم يركب البحر إلا مرة واحدة في كل حياته، وإنما اكتسب اللقب نظرا لما بذله من مجهود لتطوير الملاحة البرتغالية. فقد ثابر على جمع كل المعلومات الجغرافية والملاحية المتاحة في ذلك الوقت، وكون مكتبة تضم أشتات الكتب الجغرافية والخرائط من جميع أنحاء العالم، ودأب على سؤال ربابنة السفن والبحارة عن مشاهداتهم وملاحظاتهم، ودعا إليه العلماء والجغرافيين وكان من بينهم كثير من العرب. ودعم الأمير هذا الجانب النظري بالجانب العملي، فاهتم بتحسن بناء السفن حتى خلف للبرتغاليين أسطولا متطورا قادرا على مواجهة أمواج البحار.

تعددت الرحلات البحرية الأوروبية منذ عهد هنري الملاح، وشهدت دول هذه القارة منافسة حامية في البحار، بحثا عن السبق في الوصول إلى أماكن وأقوام مجهولة من طرفها أو بعيدة عنها. فقد

كان للسياسة التوسعية لبلدان أوروبا، بحثا عن أسواق تجارية خارج القارة، أثر كبير في تزكية هذه المنافسة وفي التوسع في الرحلات البحرية. ومع ذلك لم تتوقف الرحلة البرية، بل نشطت أيضا وأصبحت تشكل ـــ جنبا إلى جنب الرحلة البحرية ـــ جزءا هاما وأساسيا من حضارة المجتمع الأوروبي منذ عصر النهضة. فقد دعمت الرحلة، بحرية كانت أم برية، وبطريقة مباشرة أو غير مباشرة، النشاط الاحتلالي التوسعي الذي بلغ أوجه في القرن التاسع عشر، وظهرت الرأسمالية الحديثة بطابعها الصناعي. الأمر الذي بدوره كثف من نشاط الرحلات بغية المزيد من التوسع الإقليمي، وجلب الموارد الطبيعية من خارج أوروبا للاستخدام الصناعي وفتح أسواق عالمية للمنتوجات.

لقد حظي الرحالة أنفسهم بمكانة خاصة، وسهل انتشار الطباعة تداولَ مؤلفاتهم وكسبها لشعبية كبيرة بين القراء على كافة المستويات، مما أغنى الفكر الأوروبي بالمعلومات المفيدة والمثيرة عن العالم والإنسان.

2) من هو صاحب السبق في الوصول إلى أمريكا؟:

لقد تعددت المزاعم في الإجابة على سؤال مفاده: "من هو شعب العالم القديم الذي وصل الأول إلى القارة الأمريكية؟"، وكل من ادعى إدعاءا إلا وحاول جاهدا البحث على ما يزكيه.

أ ـــ رحلة الإخوة المغررين (المغربيين).

إن أشهر الرحلات في المحيط الأطلسي التي تنسب لمسلمين هي المعروفة برحلة الإخوة المغررين أوالمغرورين أو المغربيين، وأقدم مصدر تحدث عنها هو الشريف الإدريسي، وقد ورد عنده خبر هذه الرحلة في معرض حديثه عن لشبونة. فهو يقول:

ومن مدينة لشبونة كان خروج المغررين في ركوب بحر الظلمات، ليعرفوا ما فيه، وإلى أين انتهاؤه، كما تقدم ذكره، ولهم بمدينة لشبونة بموضع بمقربة الحمّة [أو الحامّة: منبع ماء ساخن] درب منسوب إليهم، يعرف بدرب المغررين إلى آخر الأبد. وذلك أنهم اجتمعوا كلهم أبناء عم، فأنشئوا مركبا حمالا، وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر، ثم دخلوا البحر في أول طاروس [أي هبوب] الريح الشرقية، فجروا بها نحوا من أحد عشر يوما، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش [أي الصخور] قليل الضوء، فأيقنوا بالتلف فردوا قلاعهم في اليد الأخرى، وجروا مع البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوما، فخرجوا إلى جزيرة الغنم، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل، وهي سارحة لا راعي لها، ولا ناظر إليها، فقصدوا الجزيرة فنزلوا فيها، فوجدوا عين ماء جارية، وشجرة تين بري عليها، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها، فوجدوا لحومها مُرّة، لا يقدر أحد على أكلها، فأخذوا من جلودها، وساروا مع الجنوب اثني عشر يوما إلى أن لاحت لهم جزيرة، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث، فقصدوا إليها ليروا ما فيها، فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك، فأخذوا وحملوا في مركبهم إلى

مدينة على ضفة البحر فأنزلوا بها، فرأوا فيها رجالا شقرا زعرا شعور رؤوسهم سبطة، وهم طوال القدود، ولنسائهم جمال عجيب، فاعتقلوا منها في بيت ثلاثة أيام، ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي، فسألهم عن حالهم وفيما جاءوا وأين بلدهم، فأخبروه بكل خبرهم فوعدهم خيرا، وأعلمهم أنه ترجمان الملك. فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم، أحضروا بين يدي الملك فسألهم عما سألهم الترجمان، فأخبروه بما أخبروا الترجمان بالأمس، من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب، ويقفوا على نهايته. فلما علم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان: خبِّر القوم أن أبي أمر قوما من عبيده بركوب هذا البحر، وأنهم جروا في عرضه شهرا، إلى أن انقطع عنهم الضوء، وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدي، ثم أمر الملك الترجمان أن يعد القوم خيرا، وأن يَحسُن ظنهم بالملك، ففعل ثم انصرفوا إلى موضع حبسهم، إلى أن بدأ جري الريح الغربية، فعُمِّر بهم زورقٌ، وعصبت أعينهم وجرى بهم في البحر برهة من الدهر، قال القوم: قدَّرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها، حتى جيء بنا إلى البر، فأخرجنا وكتفنا إلى خلف وتركنا بالساحل، إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس، ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الكتاف، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس، فصحنا بجملتنا، فأقبل القوم إلينا، فوجدونا بتلك الحال السيئة، فحلونا من وثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا، وكانوا برابر [يقصد أمازيغيين]، فقال لنا أحدهم: أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟ فقلنا: لا، فقال: إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين. فقال زعيم القوم: وا أسفي.. فسمي المكان إلى اليوم أسفي، وهو المرسى الذي في أقصى المغرب.[3]

لقد شكك الكثير من الدارسين في صحة هذه الرحلة، وزعم البعض الآخر أن ما يرويه الإدريسي هنا حقيقي، وإن التَبَس به قدر من الخيال. فقد اتفق كثير من الباحثين على أن أحسن أقسام مؤلف الشريف الإدريسي، هو القسم الخاص بالمغرب والأندلس وبلاد السودان الغربي، ثم إن الرجل رغم أنه ولد في سبتة فقد أقام في الأندلس وتنقل في ربوعها أيام كانت في أيدي المسلمين.

مما يعطي مصداقية لرواية الإدريسي هذه، ذكره لدرب منسوب إلى هؤلاء المغامرين بمدينة لشبونة، يعرف بدرب المغررين. وكذلك وجود ترجمان يعرف اللغة المحلية ويعرف اللغة العربية، وهو أمر طبيعي بحكم قرب جزر الكناري من الواجهة الأطلسية لبلاد المغرب. ومن الراجح أن الجزيرة الأولى هي إحدى جزر الأصور والأرجح إنها جزيرة ماديرا، والجزيرة الثانية هي إحدى جزر الكناري. وإذا كان هؤلاء المغامرون قد حلوا بجزيرة تدعى جزيرة الغنم، فقد جرت عادة الملاحين

---

[3]) الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق تشيرولي وآخرين، ج 5، روما /نابولي، 1970 / 1984، ص ص 548 ــ 549.

العرب على أن يطلقوا أغناما حية بالجزر التي تقع في طرقهم، فتتوالد وتصير حقا مشاعا لهم ولغيرهم من الملاحين الذين ترسو سفنهم بهذه الجزر بعدهم.

وتتفق رواية الإدريسي مع ما يقره الجغرافيون المحدثون وعلماء الأنثروبولوجيا من أن الغوانتشاس Gwan'chas (سكان الكناري الأصليين)، يتشابهون في الخصائص العرقية مع الأمازيغيين في المغرب، من حيث استدارة الرؤوس واستعراض الجباه وتوافر الشقرة فيهم، وإن كان غالبهم ذوي شعر أسود وعيون سوداء.

أما عن تاريخ هذه الرحلة، فيذهب بعض الباحثين إلى أنها وقعت في سنة 422 هـ الموافق لسنة 1031 م، وهي سنة سقوط الخلافة الأموية في قرطبة. ثمة نتيجة هامة نخرج بها من رحلة المغررين، هي إن العرب سبقوا الأوروبيين في الوصول إلى جزر الأصور أو ماديرا والكناري، وهي خطوة هامة على الطريق إلى أمريكا، والمعلوم أن البرتغاليين وصلوا إلى الكناري في سنة 1341 م كما أنهم وصلوا إلى الأصور في سنة 1427 م.

ب ـ هل وصل العرب إلى أمريكا قبل الأوروبيين؟

ليس لدينا ـ حتى الآن ـ نص قاطع يشير إلى رحلة قام بها العرب إلى أمريكا قبل كولومبس، وأقوى ما لدينا من نصوص منطقا، وهو النص الخاص بالإخوة المغررين، يوضح أنهم لم يتعدوا في الغالب جزر الأصور غربا. كان السباق إلى فتح مناقشة قضية من وصل الأول إلى أمريكا انطلاقا من العالم القديم، هو أحمد زكي باشا[4]، وكان ذلك سنة 1919، ولم يصل إلى نتيجة محددة. وفي سنة 1945 نشر الأب أنستاس ماري الكرملي مقالا تحت عنوان "عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب" (ضمن مجلة المقتطف، العدد 2، المجلد 106، فبراير 1945)، ذهب فيه إلى أن العرب عرفوا تيار الخليج الدافئ وكانوا يستعينون به في رحلة ذهابهم إلى المكسيك وعودتهم منه، ويستدل على ذلك بأسماء بعض الحيوانات المتوطنة هناك، وهذه الأسماء هي حسب رأيه من أصل عربي، ويذكر كذلك أن كولومبس عاد من أمريكا بذهب مخلوط بالنحاس على النحو الذي يخلط به أهل غانا وبالنسبة نفسها.

ربما كان صحيحا ما يذهب إليه الأب أنستاس، ولكن ليس لدينا ولا لديه نص بشأن ذلك، ثم إن تيار الخليج لم تتضح فائدته للملاحة، ولم يظهر على الخرائط الملاحية، قبل أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. وإذا كان العرب قد عرفوا هذا التيار فكان جديرا بهم أن يشيروا إليه، مثلما أشاروا إلى التيارات التي عرفوها في البحار المطروقة عندهم، ثم إن تشابه بعض الألفاظ أو أنماط الحياة ليس معيارا ثابتا، وربما كان مصدر هذا التشابه هو النشوء المستقل.

وجدت نظرية هذا العالم اللغوي الكبير صدى في مجموعة من الباحثين العرب اللاحقين، ومنهم شاكر مصطفى (توفي سنة 1997) ونجيب البهبيتي (صاحب مؤلف "الملحمة العربية الأولى، أو عند

---

[4]) اسم مؤلفه هو Une Seconde Tentative des Musulmans pour découvrir l'Amérique, Bulletin de l'Institut d'Egypte vol. II, 1919-1920, pp. 57-59.

جذور التاريخ"، دار الثقافة، الدار البيضاء 1981)، وما يذهبون إليه لا يخرج عن تعسف في تأويل النصوص بهدف الوصول إلى نتائج ربما كانت مقررة سلفا، ومثالا على ذلك زعم البهبيتي أن يوكاتان في أمريكا الوسطى تحريف ليقطان أو قحطان.

وعلى العموم فقد اتجه بعض الأبحاث العلمية الحديثة إلى القول بأن المسلمين عرفوا أمريكا قبل أن يصل إليها كولومبس، وأشار أصحاب هذا الزعم إلى وجود كلمات عربية في لغة سكان أمريكا الأصليين، وإلى أن كولومبس وجد في رحلته الثالثة زنوجا وذهبا إفريقيا في جزر العالم الجديد، وأن مدنية بعض الجماعات المحلية هناك تشبه المدنية الإسلامية إلى حد كبير.

إن إعمال المنطق يدفعنا إلى عدم منح التأييد المطلق لهذه التوجهات، وعدم الجزم في القضية، وبخاصة في ظل غياب أية وثيقة تاريخية مكتوبة أو منقوشة أو ما شابه ذلك. إن كل القرائن التي لدينا تقول بأن العرب أسهموا في وصول كولومبس إلى أمريكا ولو بطريقة غير مباشرة، وهي قرائن ثابتة.

بالإضافة إلى إسهامات العرب في تطوير الملاحة البحرية، فإن كروية الأرض هي حقيقة توصل إليها اليونان في القديم، وأخذ العرب عنهم هذه الحقيقة، في حين لم تصبح كذلك عند باقي الأوروبيين إلا في عصر النهضة. لكن هل كانت هذه الكروية تعني عندهم وجود أرض في مكان ما بين جزر الكناري والصين؟. يمضي بنا البيروني المتوفى حوالي سنة 1049 ميلادية خطوة بعيدة، فيصف المحيط الأطلسي بأنه "قاطع بين هذه المعمورة، وبين ما يمكن أن يكون وراء هذا البحر في الجهتين من بر أو عمارة في جزر.."[5]. على أن أبا الثناء محمود بن أبي القاسم البغدادي، المتوفى حوالي سنة 1348 م، يمضي بنا خطوة أبعد، فيرفض النظرية اليونانية التي تجعل المعمور قصرا على قسم معين من الكرة الأرضية، ويقول: "لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفا من الجهة الأخرى، وإذا لم أمنع أن يكون منكشفا من تلك الجهة، لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن، مثل ما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى."[6]

يُلاحَظ أن أبا الثناء تخيل وجود أرض في مكان ما إلى الغرب، في حين أن كولومبس تخيل فقط طريقا ممكنا في اتجاه الغرب يؤدي إلى الهند وتوابلها. كان لدى العرب إذن احتمالُ وجود أرض وراء هذا المحيط غربا، وهذه خطوة نظرية كبيرة على الطريق إلى العالم الجديد، ولا يستبعد أن يكون سبب توصلهم إلى هذا الاحتمال راجع إلى احتكاكهم بالفيكينغ.

لقد دارت صراعات بين مسلمي الأندلس والفيكينغ ــ سنعود للحديث عن الفيكينغ والبحر بتفصيل لاحقا ــ وكانت هذه الصراعات تسفر أحيانا عن أسر بعض هؤلاء الشماليين وإسلامهم، وقد صارت لهم مستوطنة زاهرة جنوبي إشبيلية، حيث اشتغلوا بتربية المواشي وإنتاج الألبان. والمعروف

---

[5]) البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة، ط 2، عالم الكتب، بيروت 1983، ص 139.

[6]) ورد النص عند ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأعصار، ج 1، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب، القاهرة 1924، ص 31.

أن الفيكينغ وصلوا إلى إيسلندة لأول مرة في سنة 860 م، وبدؤوا يستوطنوها في سنة 871 م، وفي سنة 982 م وصل إيريك الأحمر إلى غرينلند، وبدأ استيطانها بعد خمس سنوات، وحوالي سنة 1000 م وصل لايف Leif ابن إيريك إلى العالم الجديد، واستوطن منطقة دعيت بفاينلاند Vinland أي أرض الكروم، ويرجح أنها الآن نيوفونلاند. هل استفز الفيكينغ الفضول الإيجابي عند الأندلسيين؟. محاولة الإجابة على هذا السؤال ستبعدنا عن الموضوع.

الجدير بالذكر هو أن بعض معارف العرب العلمية وصلت إلى الإيبيريين، وتوجد بمكتبة الاسكوريال (الاسكوريال دير يوجد في إسبانيا) خريطة للعالم مجهولة المؤلف، تعود إلى ما قبل سنة 588 هـ/1192 م، وينسبها البعض إلى أبي علي بن الزيات الإشبيلي، وتوضح هذه الخريطة ما يعرفه العرب عن بحر الظلمات (المحيط الأطلسي)، ويظهر فيها خليج غينيا بوضوح.

الأكثر من هذا فقبل أن يولد كولومبس بسنوات طويلة، صنف بطرس الأيلي Pierre d'Ailly (1350 ــ 1420 وهو لاهوتي وفلكي فرنسي) رسالةً دعاها صورة الدنيا Imago Mundi وقد استعان في كتابتها بمراجع عربية، وضَمَّن الرسالة خريطة توضح أن للدنيا مركزا في نصفها الشرقي وآخر في نصفها الغربي، وليس من المستبعد أن يكون كولومبس قد استفاد من هذه الرسالة ولو بطريقة غير مباشرة. وأكثر من هذا، لقد أشار كولومبس إلى مؤلفات عربية في رسالته إلى الملكين الكاثوليكيين الأيبيريين في سنة 1501.

انظر بقية المقرر في المحاضرات